التجديد الديني في فكر علي الوردي

د.ترايكية يامنة
أستاذة محاضرة قسم –ب-

الملخص:
تناولنا في هذه الدراسة موضوع التجديد الديني في فكر علي الوردي ، الذي يعتبر أحد أبرز علماء الاجتماع العرب ، حيث ركز الوردي على ضرورة إعادة تبني منطق جديد في التفكير الديني ، بالإضافة إلى إعطاء تعاريف جديدة لمفهوم الطائفية والرجوع إلى الأصول .
كما ركز الوردي على ضرورة عدم النظر إلى مختلف التغيرات التي شهدها المجتمع الإسلامي على أنها مجرد فتن وإنما يجب الأخذ بعين الاعتبار الحراك الاجتماعي والتغير الاجتماعي الذي يعتبر سمة تميز كافة المجتمعات دون استثناء .
الكلمات المفتاحية: علي الوردي ، علم الاجتماع ، التجديد الديني ، فكر ، منطق أرسطو .

Astract:

In this study we discussed the subject of religious renewal in the thought of Ali Al-Wardi,
Who is considered one of the most prominent Arab sociologists, where Al-Wardi focused on the need to re-adopt a new logic in religious thinking, in addition to give new definitions of the concept of sectarianism and return to assets.

He also emphasized the need not to look at the various changes that have occurred in the Islamic society as a mere fascination, but must take into account the social mobility and social change, which is a feature of the distinction of all societies without exception.

Key words : **Ali al-Wardi**, **sociology**, **religious renewal**, **thought**, **Aristotle logic**

Mokarabat

I المقدمة:

يعتبر التجديد الديني من أهم المواضيع التي تناولها الكثير من العلماء والمفكرين ، حيث يعبر هذا المصطلح عن إعادة قراءة وتمحيص لما قدمه علماء الدين وفقهائه عبر التاريخ ، فهو عبارة عن إحياء للفكر الديني لكي يتناسب مع جميع العصور والأزمنة والمجتمعات ، حيث نجد أن الإنسان والمجتمع في حالة تغير مستمر مما يتطلب صياغة قوانين ومفاهيم جديدة لإدارة شؤون الحياة، وذلك من خلال خلق رؤية أكثر ملائمة وعصرنة مع المشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من خلال القراءة المتجددة والمتطورة للفكر الديني الإسلامي لتمكن من مواكبة الحضارة والخروج من التبعية والتخلف .

كما يعتبر علي الوردي من أبرز علماء الاجتماع العراقيين والمسلمين ، ومن أهم المفكرين الذين بحثوا في قضايا الدين بشكل خاص ، حيث استطاع من خلال فكره التنويري الثوري المتجدد التأثير في الكثير من الناس و بمختلف شرائحهم .

حيث عمل الوردي على إعادة تمحيص للأفكار الدينية وغربلتها بالشكل الذي يسمح لها بأن تكون أكثر فاعلية وتأثير في مجتمعاتنا الإسلامية بهدف توعية الأجيال وجذبهم نحو الإسلام الأصيل التوحيدي.

ومن خلال هذه الدراسة سنحاول التعرف أكثر على علي الوردي ، والتعرف على فكره الديني الإصلاحي التجديدي ، مبرزين نقاط القوة ونقاط الضعف في هذا الفكر .

II أهداف الدراسة :تهدف هذه الدراسة إلى :

- التعرف على منهج علي الوردي وأسلوب تحليله .
- التعرف على موقف علي الوردي من الإسلام وتعريفه له ومفهوم الطائفية بالنسبة له .
- التعرف على الفكر الديني لعلي الوردي بشكل عام والتجديد الذي أضافه على هذا المجال بشكل خاص .
- التعرف على رأي علي الوردي في رجال الدين، ومفهوم العودة للأصول بالنسبة له.

III أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة في أهمية الباحث والمفكر الذي نحن بصدد التعرف على فكره الديني ، حيث يعتبر الوردي من أبرز علماء الاجتماع البارزين في المجال الديني في الوطن العربي ، حيث ساهم بشكل كبير في خلق رؤية جديدة للإسلام من خلال محاولة تغيير للمنطق الذي يتم به عادة دراسة هذا الدين ، وهو ما سنحاول التعرض له من خلال هذه الدراسة.

IV بيوغرافيا علي الوردي :

ولد علي حسين الوردي في مدينة الكاظمية في ضواحي بغداد عام 1913، تحديدا لأسرة علمية معروفة تدعى بيت أبي الورد نسبة إلى عمل أسلافها في تقطير ماء الورد، وقد درس في مدارس مدينة الكاظمية، ولتفوقه في الدراسة الثانوية أرسلته الحكومة العراقية للدراسة في الجامعة الأمريكية في بيروت حيث تخرج منها ثم عاد إلى العراق وعمل في التدريس لمدة ثلاث سنوات ثم أرسل إلى جامعة تكساس في الولايات المتحدة الأمريكية لينال منها شهادة الماجستير بعنوان دراسة في سوسيولوجيا الإسلام ثم حصل على شهادة الدكتوراه بعنوان نظرية المعرفة عند ابن خلدون، ويعد علي الوردي الرائد الأول في

Mokarabat

تأسيس علم الاجتماع في الوطن العربي كعلم منفصل عن باقي العلوم الإنسانية وقد استمر في التدريس إلى غاية سنة 1969، أحيل بعدها للتقاعد بناءا على طلبه ليتفرغ للكتابة والبحث.[1]

أ . شخصيته العلمية :

كان لنشأة علي الوردي العصامية والدينية الثقافية وكذا حالة عائلته الفقيرة والمثقفة و تجاربه في أزقة الكاظمية وأسواقها ومجالسها الأدبية ونواديها الاجتماعية و وتراثها السياسي والديني دور لا يستهان به في تكوين شخصيته وثقافته، كما كان لكفاحه وصبره واجتهاده تأثيرا لا يستهان به في جعله مفكرا اجتماعيا وكاتبا ساخرا وناقدا اجتماعيا، كان الوردي منذ صغره مولعا بالكتب والمجلات، كما أنه كان دؤوبا على زيارة السجون والمحاكم وحضور المناسبات الدينية في الجوامع ومجالس العزاء الحسيني ومجالسة الكبار والاستماع إلى أحاديثهم وذكرياتهم كل ذلك ساهم في تكوينه الفكري والاجتماعي وكذلك في تشكيل شخصيته العلمية ونزعته الشعبية الساخرة.[2]

ب . سبب دراسته علم الاجتماع :

عندما سؤل علي الوردي عن سببه دراسته علم الاجتماع بدل أي تخصص أخر خاصة وأن ميوله كانت أدبية فأجاب :« لأن هذا العلم يلائم ذوقي ومزاجي، فقد مررت في طفولتي وبداية شبابي بتجارب عانيت فيها ورأيت البشر على حقيقتهم دون قناع فنشأت عندي رغبة في أن أتعرف على طبيعة البشر شيئا ولماذا يسلك إنسان هذا المسلك ويسلك غيره مسكا أخر ». [3]

ج– مؤلفاته:تشير الموسوعة الحرة ويكيبيديا إلى أن علي الوردي قد كتب ثمانية عشر كتابا ومئات البحوث والمقالات، أربع كتب منها قبل ثورة 14 تموز 1958 وكانت ذات أسلوب أدبي – نقدي ومضامين تنويرية جديدة وساخرة لم يألفها القارئ العراقي ولذلك واجهت أفكاره وآراءه الاجتماعية الجريئة انتقادات لاذعة ، ويمكن استعراض الكتب التي قام (الوردي) بتأليفها فيما يلي :

- مهزلة العقل البشري.
- وعاظ السلاطين.
- خوارق اللاشعور (أو أسرار الشخصية الناجحة).
- هكذا قتلوا قرة العين.
- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (8 أجزاء).
- الأحلام بين العلم والعقيدة.
- منطق ابن خلدون.
- قصة الأشراف و ابن سعود.
- أسطورة الأدب الرفيع.
- شخصية الفرد العراقي، بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث.
- أكثر من 150 بحثا مودعة في مكتبة قسم علم الاجتماع في كلية الآداب جامعة بغداد. [4]

Mokarabat

V منهج علي الوردي :

طرحت تساؤلات كثيرة عن المنهج الذي استخدمه الوردي في دراساته وأبحاثه الاجتماعية، حيث يرى البعض أن الوردي ليس سوى مجرد مؤرخ وليس بعالم اجتماع، وأن أغلب ما كتبه يقع في دائرة التاريخ وليس المجتمع.

«إن القراءة الجادة لكتب علي الوردي تبين لنا بوضوح بأنه ليس مؤرخا وأنه يعتمد فقط على ما يكتبه المؤرخين » [5] حيث أنه لا يهتم بالتاريخ من أجل التاريخ وإنما لدراسته وتفكيك أحداثه وفهم تأثيره على تشكيل البنى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ومعرفة سمات وخصائص شخصية الفرد العراقي التي نمت وتبلورت في إطارها، وهو الأمر الذي جعله يقرأ تاريخ الدولة العثمانية بما زخرت من أحداث وصراعات وتناقضات غير قليلة كان لها تأثير عميق وواضح على طبيعة المجتمع العراقي وإعادة إنتاج كثير من القيم البدوية السلبية التي نشأ الفرد العراقي في إطارها وتكونت ذهنيته بموجبها، وقد ذكر الوردي بأنه ليس مؤرخا وإنما يعتمد فيما يكتبه على المؤرخين.

ومن الناحية السوسيولوجية فإن للظواهر الاجتماعية امتداد تاريخي مثلما لها امتداد اجتماعي انثروبولوجي وهو ما يظهر في دراسات الوردي وطريقة بحثه وتحليله للظواهر الاجتماعية وتأويله لتأثيرها على المجتمع العراقي، وتشكيل شخصية الفرد فيه.

يقول الوردي :« الواقع أن الباحث الاجتماعي الذي يتجول في صفحات التاريخ قد يستمد منها دروسا لا تقل أهمية عن تلك التي يستمدها من التجول في المجتمع، بعبارة أخرى، أن تجول الباحث في الزمان لا يقل نفعا عن تجوله في المكان، فكلاهما يمده بالمعلومات الضرورية لفهم المجتمع البشري وطبيعة الإنسان.[6] »

مساهمات الوردي التاريخية لا تقل أهمية عن إنجازاته في علم الاجتماع، فأعاد قراءة العديد من أحداث وشخصيات التاريخ الإسلامي وفق منهج واقعي بعيد عن المثالية يأخذ بالاعتبار الميول البشرية التي لا يمكن تجاهلها، وذلك بإلقائه الضوء على كثير من القضايا الشائكة التي تجنب معظم الدارسين الخوض فيها لحساسيتها.

وقد اتسمت معالجته بالموضوعية الشديدة التي ألزم نفسه بها؛ من خلال تحليله العلمي غير المتحيز لأهم الأحداث التي مر بها التاريخ الإسلامي، وبالذات الفتنة الكبرى وعلاقة علي ومعاوية، وجذور الصراع الشيعي السني، وما تبعه من تداعيات ما تزال تعاني منها الأمة حتى الوقت الراهن، وفيها أعاد معظم ما جرى إلى أنه محصلة صراع بين دافعي الواقعية والمثالية، تطور إلى خلافات مذهبية دينية في ظاهرها، لكن منشأها سياسي في المقام الأول.

وبذا دعا إلى نبذ الخلاف الطائفي بين الشيعة والسنة، وطالب بالنظر إليه على أنه خلاف تاريخي تجاوزه الزمن، ويجب على المسلمين عوضاً عن ذلك استلهام العبر من الأمم المتقدمة التي مرت بما مررنا به، لكنها تمكنت من تحويل أدوات الصراع على السلطة من صليل السيوف إلى صناديق الاقتراع.

في آخر أيام حياته آثر الوردي الصمت؛ لأن كثيراً مما سيقوله "لم يحن وقته"، وهذا ربما يفسر أن كتبه السبعة التي أعلن عنها في ثنايا كتبه المطبوعة لم تر النور في حياته، لكن إرثه ما يزال يتكلم حاملاً في طياته رؤيته لحل لكثير من المعضلات التي استشرفها وفكك مسبباتها، فتنبأ أنه بدون الديمقراطية التي نهضت بالأمم الأخرى لا مناص من إعادة انفجار الأوضاع العربية بين فترة وأخرى بسبب جذور العصبيات التي تتحكم بشخصية الفرد العربي والعراقي تحديداً، وهو يعيش واقعاً مجتمعياً أسيراً للتاريخ وثاراته وقيم وأعراف اجتماعية وعصبيات طائفية وعشائرية معقدة ماتزال بقاياها كامنة في النفوس، فضلاً عن

الاستبداد السلطوي وأبواقه الذي طالما حذر منه، وهو يعيد إحياء رفات الرواسب الاجتماعية والثقافية التقليدية القديمة ويرسخها لمصلحته من جديد، كما نشهده اليوم، داعياً إلى أن "نحدث انقلاباً في أسلوب تفكيرنا الذي يسير على نمط ما كان يفكر به أسلافنا في القرون المظلمة ." [7]

VI . مفهوم الإسلام في فكر علي الوردي :

ينظر الوردي إلى الإسلام بوصفه دين العدل والمساواة، ودين الضعفاء والمغلوبين بل جاء من أجل نشر الفضيلة بين الأُمم، وهو ثورة كبرى على صعيد القيم الإنسانية، فهو بمثابة قلب لقيم الجزيرة العربية التي كانت تعيش على الغلبة والقتل، لذلك يرى الوردي أن الإسلام " بدأ في أول أمره نظاماً ديمقراطياً، لا سيما مع النبي محمد(ص) والخلفاء الراشدين(رض) ،فالمسلمون الأولون كانوا يكافحون الظلم والترف والتعالي" [8] ، وقد استطاع النبي أن ينتقل بهذا المجتمع من حال الفرقة والتشرذم إلى حال الوحدة والعدل فقد كان في بعث لرسالة الإسلام النبي محمد (ص) إيقاظا للعقل ودفعاً للهمم، فخلق بذلك ، كما يرى الوردي– تدافعاً اجتماعيا حرك الأذهان وأغنى الحضارة " لقد كان محمد ثائراً وبقي ثائراً حتى مات" [9]، بمعنى أنه كان مصلحاً وبقي مصلحاً حتى مات، ومن الممكن أن يُعَد من أهم دُعاة الإصلاح في العالم، مع اختلاف وجهات النظر حوله، لأن المصلح هو الذي" يأتي بالفكرة البسيطة جداً، ولكنه يقلب بها وجه العالم، لأنه يأتي بها عملية تؤثر في حياة الناس وتدفعهم نحو الحركة الاجتماعية التي تلعب دورها في صياغة التاريخ "" [10] فهو ليس فيلسوفاً طوباوياً يعيش حلماً بعيداً عن الواقع، بل هو جزء من المجتمع، يعيش الواقع بكل تمضهراته وتحولاته الاجتماعية، ويحاول التعبير عن رؤيته الإصلاحية عبر إحداث ديناميكية تُحَرك الوعي الاجتماعي وتنبه الفرد إلى ضرورة الإصلاح والتغيير من أجل تحقيق المجتمع المتوازن، وهذا ما كان يعيه النبي محمد(ص) لأنه: " كان ثائراً ومُجدداً يدعو إلى التقدم الاجتماعي في أقصى معانيه، وهو مجدد هذه الأمة وهو المؤمن بالتجديد" [11] وهو الذي قال " أن الله يبعث عند رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" فهو المؤمن بإمكانية الإنسان على التغيير وقابلية الدين للتجديد والتطور والاستمرارية، كي يكون ديناً إصلاحيا، حتى يتلاءم مع التطور الحضاري وتحولات المعرفة في الأزمنة المختلفة، وهذا ما تقتضيه طبيعة الدين الثورية، لأن الدين وحسب قول الرسول السابق " لا يمنع من قيام حركات دينية جديدة بين حين وآخر، تحاول العودة إلى ثورة الدين من حيث محاربة الظلم والخرافات" [12]، وهذا يقتضي دعوة من يتبنى الدين نمطاً في الحياة إلى ضرورة التخلص من الركود والثبات الذي يُصيب المعتقدات ويجعلها تصبح وكأنها مقدسات لا يمكن المساس بها مما يجعل الدين يبدو وكأنه جاء للمحافظة على مجموعة من القيم والتقاليد والمعتقدات التي ليست من أصل الدين، الأمر الذي جعل النبي يدعو إلى ضرورة التخلص من الجمود والقول بأهمية التجديد والإصلاح، وكأنه كان يعلم بتكلسنا الفكري يوماً ما، ولعله كان يأمل من المسلمين استيعاب فحوى الرسالة الإسلامية القائمة على ضرورة الإيمان بالاختلاف ونبذ الخلاف والإيمان بأن سنة الإسلام كامنة في قبولنا للتجدد والتطور والتقدم، و"لن تجد لُسنة الله تبديلا". [13]

VII الطائفية من وجهة نظر علي الوردي:

مما يلفت النظر أن الوردي تنبه لآثار الطائفية على المجتمع منذ بواكير كتاباته، فقد عدَ الطائفية نمطاً معينا من العصبية، لأنها تقوم على أساس من الانتماء الاجتماعي أكثر مما تقوم على أساس من الدين والحرص على سلامة تعاليمه، لذلك نجد

الوردي ينتقد بشكل مستمر كل من ينتمي إلى جهة ما انتماء إيديولوجيا أو عصبياً، لأنه هذا النوع من الانتماء إنما هو أحد أهم أسباب التدهور الرئيسة للأُمم، وهو نفسه السبب الحقيقي للصراع الإسلامي الإسلامي، لا سيما بين السنة والشيعة.

لا يُنكر الوردي وجود هذا الصراع، ولا يقفز على الواقع العراقي والإسلامي كما هو حال كثير من الكُتاب العراقيين والعرب، بل هو يحفر في التراث للكشف عن أسبابه الحقيقية، لذلك نجده يُجذر لتاريخ هذا الصراع في العودة به إلى ما بعد الخلافة الراشدية، حينما سيطر المترفون (الأمويون) على مقاليد الحكم، الأمر الذي حدى بالوردي إلى الاعتقاد بأن هذه السيطرة حولت الدين الإسلامي من دين يحمي الضعفاء إلى دين يحمي المترفين، فتحول إلى أداة بيد الأرستقراطية القرشية لتحقيق مطامحها ومطامعها والاستحواذ على السلطة حتى أصبح دين محمد ألعوبة بيد السلاطين ونسي الناس أن محمداً كان من ألد أعداء السلاطين، وبدل من أن يصبح الدين دين عدل ومساواة بين الناس أصبح دين طقوس وشعائر بل ديناً طبقياً يُحافظ على أموال الأغنياء ويحتقر غير العرب ويأمر بالجزية ثم يُطَلق لفظ الموالي أي العبيد على غير المسلمين، وكأن النجاح الذي حققه المسلمون الأولون مع الثورة المحمدية أصبح مقبرة لهذه الثورة.

بدأ الصراع الإسلامي حينما شعر المستضعفون أن حقوقهم التي أعادها لهم النبي محمد قد سلبت حينما سيطرت الأرستقراطية القرشية على الثورة النبوية، وكأنه جاء رسولاً للقرشيين دون غيرهم فأصبح الإسلام بعد أن كان يعيش حرباً مع القرشيين، صار لُعبة بيدهم وحكراً لهم، لا سيما حينما استغلت هذه الطبقة حب الخليفة الراشدي الثالث لأل بيته ومحاولة الاستحواذ على السلطة، حتى أصبح الأمويون هم من يُسَير أمور المسلمين وشاعت النظرية الكلامية القائلة بالجبرية، وأن الله هو المريد وهو الذي يُحدد للإنسان أفعاله وأن الإنسان مجبور في فعله وفي طاعته لأولي الأمر، وأن الله هو الذي يختار الحاكم ويُفضَله على باقي المسلمين، فالخليفة هو الحاكم بأمر الله، وهو من له الحق بالتصرف بأموالهم وأمورهم، وكأن الحكم قميص يُلَبسه الله لمن يريد، بحسب عبارة الخليفة الراشدي الثالث "عثمان ابن عفان" "أن الحُكم قميص قمصنياه الله"، ومعنى هذا ألَا حق لأحد بنزع هذا القميص، أي الحُكم، سوى الله الذي قمصه لمن يُريد.

أفاض الوردي في قراءته للتاريخ الإسلامي، وحاول أن يوضح أسباب الخلاف الإسلامي الإسلامي مُعتقداً أنه مُتعلق بالميول الغريزية لدى الإنسان والقائمة على أساس الغلبة والاستئثار والتعصب لمعتقداته وميوله لأنه (الإنسان) لا يقبل أن يخرج من "قوقعته الفكرية" أو "إطاره الفكري" الذي أطر به نفسه والذي يدفعه بشكل مستمر للإعجاب بأفعاله والتباهي بها، وهذه هي طبيعة المجتمع القبلي إذ "ينشأ فيه الفرد في تقاليد وعقائد وقوالب فكرية ثابتة نسبياً وهو يقع تحت تأثير تلك القوالب ويتبناها وينظر إلى الدنيا من خلالها من حيث لا يشعر" [14] وهذا ما كان واضحا في الشخصية العراقية التي تتميز بشدة النزعات العصبية والطائفية لأنها كانت نتاج الصراع بين البداوة والحضارة من جهة ونتاج الصراع الحضاري الإسلامي من جهة أخرى.

كانت أرض العراق هي محطة الصراع بين قيم البداوة وقيم الحضارة، الأمر الذي جعل الوردي يحكم على الشخصية العراقية بأنها تعيش ازدواجية اجتماعية، والسبب الآخر في استمرار الصراع في أرض العراق هو أن هذه الأرض كانت ولا زالت أرضاً للصراع بين دولتين إسلاميتين كل واحدة منهما تُمثل طائفة مهمة من طوائف الإسلام: الدولة الفارسية وتمثل الطائفة الشيعية، أما الثانية فهي الدولة العثمانية والتي تمثل الطائفة السنية "الأمر الذي أدى إلى استعمال الصراع الطائفي في العراق

إلى درجة لا تُطاق، لذلك يعتقد الوردي أن الصراع بين السنة والشيعة خرج من كونه نزاع حول المبادئ العامة وصار نزاعاً على الرئاسة" [15] فلم يكن الشيعة (روافض) في أول أمرهم، وكذلك لم يكن السنة (نواصب)، إنما هو التطرف ... فإذا أراد الشيعة أهل السنة في هذا العصر أن يتوحدا، فليرجعوا إلى شعارهم القديم الذي اتخذه زيد بن علي وأبو حنيفة، أي شعار الثورة على الظلم في شتى صوره، لا فرق في ذلك بين ظالم شيعي أو ظالم سني" [16] والمشكلة أن الناس قد نسوا أن إمام السنة أبو حنيفة وإمام الشيعة موس الكاظم قد ماتا في سجن الخلفاء العباسيين". [17] ونسوا "أن التشيع كان ثورة اجتماعية في سبيل العدل والمساواة، وقد انشطر إلى شطرين مع الدولة العباسية، فأصبح هناك تشيع عباسي وتشيع علوي، وحينما جاء الصفويون خدروا مذهب التشيع وروضوه فازالوا عنه النزعة الثورية التي كانت لاصقة به" [18] (وحينما دعا مذهب التشيع إلى مبدأ العصمة إنما كان وراء ذلك مغزى اجتماعياً"، فهو عبارة عن انتقاد غير مباشر لما كان عليه سلاطين الإسلام من شغل وتفسخ" [19] فقد كان هذا المبدأ يحمل في طياته نقداً حقيقياً للسلطة التي خرجت عن مقتضيات الدعوة المحمدية وفي الوقت نفسه دعوة لإحقاق الحق ونشر العدالة والبحث عن إنسان عادل يتجاوز ظُلم السلاطين ويملأ الأرض عدلا بعد أن ملأت جورا .

ينظر الوردي إلى الدين بصورته الثورية المتجددة التي تنقلب على الثبات والركود في كل زمان ومكان، ولم تكن النزعة الثورية التي يتكلم عنها الوردي في الدين بشكلها السلبي، بوصفها محاولة لإلغاء الآخر والهيمنة على كل ثرائه وتنوعه، إنما هي ثورة على الظلم والتجبر والطغيان لا على الفكر وتنوعه الذي يؤيده قول الرسول "اختلاف أمتي رحمة".

ما تجدر الإشارة إليه أن الوردي حينما تنبه للصراع الطائفي في العراق، لم يذهب إلى البحث عن أسبابه الخارجية، بل ذهب إلى نقد الأطراف العراقية التي انساقت مع هذا الصراع "ولم تكن تعتبر الإيرانيين أو الأتراك أجانب هدفهم احتلال البلاد والانتفاع بخيراتها، و(المشكلة) هي إن كل فريق منهم كان ينظر إلى الدولة التي تنتمي إلى مذهبه كأنها حامية للدين ومنقذة للرعية" [20]

ولا خلاص لهذا البلد باعتقاد الوردي من هذا الصراع الطائفي إلّا باعتماد " طريقة التصويت والانتخاب المباشر التي تسمح للمجددين من أبناء الأمة أن يحققوا رغبتهم" [21] وهو السبيل للخلاص من العنف لأن الحكومة الديمقراطية تنبعث من صميم الشعب، مع ضرورة تنمية الوعي بالتعليم والتربية، كي يكون الفرد قادراً على اختيار من يُمثله، ولا بأس من وجود صراع بين اتجاهين داخل المجتمع، كأن يكون هناك اتجاه يُمثل المحافظين وآخر يمثل المجددين، والديمقراطية تحافظ على وجود الاتجاهين، بل أن وجودهما مع بعض يحافظ على النظام والتوازن في المجتمع فالمحافظ يكبح جماح المجدد والمجدد يكسر ثبات المحافظ وعلى الرغم من إن النصر لربما- يكون في يوم ما للمجددين ولكن ربما يكون المجددين يوم ما محافظين، فإنهم والى هذا الحال يحتاجون إلى مجددين لأن هؤلاء هم من تقوم على أكتافهم الديمقراطية.[22]

مع الوعي الديمقراطي الذي يعتقد الوردي بقربه من طبيعة الدين"يستطيع الإنسان أن يخرج من "قوقعته الفكرية" إلى عالم واسع يكون فيه التنازع والتعاون صنوين لا يفترقان" .[23] والحكومة العادلة هي التي "تطمئن لها قلوب الأكثرية من رعاياها ولا يهم بعد ذلك أن تغضب فئة صغيرة ولعل غضب هذه الفئة إنما يُزيد العدل قوة ووضوحاً" وهذه هي طبيعة الحكم الديمقراطي مع مشروطية أن تتحقق الثقة بين الحكومة والشعب.[24]

VIII المنطق الأرسطي ورجال الدين :

كان من المتوقّع من العلّامة الراحل علي الوردي في كتابه الثاني : (خوارق اللاشعور) ، أن تكون المساحة المتاحة لتناول الفكر الديني والتاريخ الإسلامي محدودة لأن موضوع الكتاب علمي : القوى الخارقة لدى الإنسان (الخارقية أو الباراسيكولوجيا) ، ولكن الوردي ، وفي مواضع كثيرة يتطرّق للدين ولرجال الدين بالصيغة العامة السابقة التي طرحها في (شخصية الفرد العراقي) ، بل وبصورة أكثر حدّة ومن خلال مقتربات مثيرة ، ففي مقدمة الكتاب يقول بأنه قد وصل ببحثه هذا إلى نتيجة تعاكس جميع ما دأب المعلمون والكتاب والخطباء في هذه البلاد أن يلقنونا إياه ، فهم قد وعظونا وعلمونا على أن (من جد وجد) .. وأن مستقبل الفرد بيده إذ هو يستطيع أن يصنع نفسه حسب ما يشاء بحزمه وإرادته وسعيه واجتهاده ... [25] لقد اختار مقتربا شكلته قاعدة إسلامية هي من المسلمات في عقل المواطن ، ومرّره بهدوء ليبني الموقف الإيجابي كما يتصوره على تأثيرات القاعدة السلبية السابقة، لكن طريقة تناول الوردي ونبرة لهجته تتصاعد مع تلاحق الفصول ؛ ففي الفصل الأول : الإطار الفكري ، يطرح ، من بين قضايا ومفاهيم كثيرة ، موضوعة أن النزاع بين البشر ظاهرة اجتماعية ثابتة ، فيشير إلى أن التاريخ قد دلّ على أن كل دين ، مهما كان نوعه ، لا يكاد ينتشر حتى ينشق على نفسه ، أي أنه لا يكاد ينتصر وينجح حتى تظهر فيه الفرق المتطاحنة والشيع المتنابذة ويرى أن من الأخطاء التي يقع فيها المؤرخون هو أنهم يعزون سبب هذا النزاع والانشقاق في دين من الأديان إلى فلان أو فلان من شخصيات التاريخ ، ويأخذون بذمّه على اعتبار أنه قد فرّق الأمة ، وشق عصا الجماعة ، في حين أن التفرقة طبيعة من طبائع العقل البشري ، والتفرقة لا تبدأ عادة إلا بعد النصر لأن نزاع المصالح يأخذ عند ذلك ، فالجماعة تكون في فترة الكفاح الأولى متكتلة لا اختلاف فيها لأن مصلحة الفرد ومصلحة المجموع تكون آنذاك واحدة ، أما حين يبدأ النصر وتنهال الغنائم ، وحين يُترف بضعة أفراد على حساب الآخرين ، تجد غول التفرقة قد أخذ يكشّر عن أنيابه [26]

من الممكن اعتبار منطق أرسطو عاملا هاما في إنتاج ظاهرة ازدواج الشخصية ، إذ هو يعوّد الفرد على نمط من التفكير يناقض واقع الحياة وبذا يجعله منشقا على نفسه ، فهو يفكر على طراز ويعمل على طراز آخر ، فالوردي يرى أن منطق أرسطو هو منطق الأبراج العاجية وليس منطق الحياة بتناقضاتها وتضارب معطياتها ، ولذلك نجده قد عزل المفكرين عن واقع الحياة وصعد بهم إلى السحاب ، ويتضح هذا حين ندرس قوانين الفكر التي يستند إليها هذا المنطق في أقيسته ، فهي قوانين تناقض قوانين الواقع تناقضا كبيرا ، ولذلك نجد المناطقة مبتلين بداء ازدواج الشخصية ، فهم يتجادلون ويكتبون ويخطبون حسب منطق أرسطو ، لكنهم يطلبون الرزق أو الجاه أو المنصب حسب منطق الواقع ، وينتقل الوردي إلى مجال الدين والتاريخ الإسلاميين فيقول :

(ومما يؤسف له أن نجد التفكير الديني أصبح مزدوجا أيضا ، وذلك من جراء امتزاجه بالمنطق القديم واستناده في كثير من أموره على قوانين الفكر العاجية ، فترى رجل الدين مثلا لا ينكر على الأغنياء أو رجال الدولة حين يظلمون الناس من جهة ثم يشيدون المساجد من الجهة الأخرى ، وكأنه يحسب ذلك منهم أمرا طبيعيا لا ضير فيه ، وقد أخبرنا التاريخ عن كثير من الخلفاء والأمراء أنهم كانوا ينفقون أموال الأمة على شراء الجواري وبناء القصور الباذخة ، حتى إذا جاءهم الواعظ يذكرهم بعذاب الله أغرورقت أعينهم بالدموع وأكثروا من الصوم والصلاة ... ولا تزال بقية من هذا الازدواج باقية في رجال الدين في

هذا العصر ، فهم يحترمون الظالمين فعلا ثم يذمون أعمالهم على المنابر ... إن الذي يفكر تفكيرا أرسطوطاليسيا ، سواء أكان من رجال الدين أو من غيرهم ، قد يحكم في الأمور استنادا إلى أقيسته المنطقية التي آمن بها إيمانا قويا ، ولكن الأمور تسير حسب قوانين مناقضة لهذه الأقيسة .. على هذا المنوال حارب رجال الدين الزي الحديث من الملابس وحاربوا سفور المرأة [27] كما يشير الوردي إلى عيب البرهان المنطقي (الأرسطي) الذي يحاكي عقل الإنسان الظاهر ، في حين أن العقائد والسلوكيات الثابتة تترسخ في العقل الباطن بالقول :(إن عيب البرهان المنطقي أنه لا يستطيع أن ينمي في النفس عقيدة، فالعقيدة بنت الإيحاء والتكرار، ولهذا السبب نجد وعاظنا ومفكرينا لا ينجحون في تبديل أخلاق الناس أو تغيير عقائدهم إلا نادرا، فهم يحاولون دائما أن يقنعوا الناس عن طريق الجدل وإقامة الدليل وما أشبه، هذا بينما الناس يسيرون في أمورهم الفكرية والاجتماعية على أساس ما انطبع في عقولهم الباطنة من أفكار وعادات وقيم) [28]

وفي موضع آخر يشير إلى معتقد ديني هام يقول (أن الأجر على قدر المشقة) الذي وضعه أئمة العهود السالفة ليشقوا في سبيل الله فينالوا أجره الوافر ، لكن الحياة العملية تتطلب نصيحة تخالف تلك النصيحة التي تقول بأن النجاح على قدر المشقة ، فالوردي يرى – منطلقا من آليات العقل الباطن وحسب تصوره عن مكوناته التي تختلف عن وجهة نظر فرويد كما سنرى– أن النجاح يأتي على قدر الهدوء والاسترسال وعدم التكلّف ، وذلك كي نستثمر الومضات المبدعة التي تنبعث من اللاشعور في حياتنا . ثم يبيّن أن المبدأ القديم قد جعل الإسلام دينا يتسم بالصعوبة بخلاف تعليمات رسوله :

(والدين الإسلامي قد اصطبغ بصبغة المشقة في معظم شعائره ، لقد قال النبي محمد : (جئتكم بالشريعة السمحاء) ، ولكن أتباعه نسوا هذا وجعلوا دينه من أصعب الأديان وأكثرها تعبا ومكابدة ومشقة ، فقد جعلوا الطقوس الدينية دقيقة التفاصيل معقدة الأجزاء وهم لا يزالون يتباحثون ويتجادلون لكي يضعوا ضغثا على هذا ، وقد أمسى المسلم الذي يريد أن يقوم بالطقوس الدينية حسب الأصول مضطرا أن يترك أعماله لكي يستطيع أن يتفرغ لأفانين الوضوء والطهارة وشرائط الصوم والصلاة)[29]

وسبب تعقيد طقوس الدين الإسلامي كما يرى الوردي وتحويل العبادة من طريق لبث الثقة والطمأنينة في قلب الإنسان وتجعله متفائلا في حياته لأن هناك ربّاً يحميه، إلى عبء يثقل كاهل الفرد المؤمن ويعيقه في حياته اليومية ، هو رجال الدين الذين قلّلوا من هذه المنفعة النفسية التي يجنيها الفرد من العبادة حين جعلوها محفوفة بالفروض والشروط الدقيقة ، فجعلوا المؤمن في وضع يراقب فيه نفسه بصورة تسلّطية ، وهو يؤدي طقوسه ، فلا يستطيع أن يتفرّغ بقلبه لدعاء ربّه ، واستمداد العون منه، ذلك لأنه يكون في أثناء العبادة مشغولا بأداء التفاصيل المعقدة التي يخشى أن يفوته شيء منها :

(وقد رأينا من المتعبّدين من يقضي وقتا طويلا في الوضوء لكي يقوم به على وجه الدقة المطلوبة ، وفي الصلاة لكي يؤديها كما ينبغي ، ونراه أثناء الصلاة يمط شفتيه ويلوي لسانه في كل حرف ينطق به لكي يخرجه من مخرجه المفروض – وبهذا يضيع عليه معنى الصلاة ، ولا يبقى لديه منها غير الرسوم والحركات المجردة ، إن هذه الحالة تؤدي إلى ظهور عقدة نفسية لدى صاحبها تُسمى (بعقدة الاستكمال – perfectionism) وهي ما يدعوها العامة أحيانا بالوسواس ، إن هذه العقدة منتشرة في بلادنا انتشارا فظيعا . ولعلي لا أغالي إذا قلت إن من أهم العوامل التي أدت إلى انتشارها في هذه البلاد هي تلك الدقة الشديدة التي يحاول رجال الدين أن يلبسوا الطقوس الدينية بها) [30]

IX رؤية الوردي لفكرة العودة إلى الأصول:

تعني فكرة ''إعادة الإسلام'' الرجوع إلى أصوله الأولى، أي إعادة إنتاج مفهومات السلف في حياتنا وعصرنا على الرغم من حجم ''الهوّة الزمنية'' التي تفصل بين مجتمع الأصول ومجتمعاتنا.

وقد قدّم الوردي في كتابه الموسوعي ''لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث'' تحليلاً موضوعياً لأسباب انتشار ''الحركة الوهابية'' في شبه الجزيرة العربية، وبداية توغلها نحو العراق وبلاد الشام.

ويعتبر الوردي أن فكرة ''إعادة الإسلام إلى أصوله الأولى'' لم تكن وليدة أفكار الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي عاش في المدّة (1703 – 1791)، إذ إن ابن تيمية سبقه إليها قبل خمسة قرون، لكن سبب نجاح ابن عبد الوهاب وإخفاق سلفه ابن تيمية يعود إلى أن ابن عبد الوهاب نادى بالحركة في بيئة بدوية، فيما نادى ابن تيمية بها في بيئة حضرية لم تتقبلها ويظن الوردي أن رفض الوهابية لفكرة الشفاعة والوساطة هو من جعل البدو يقبلون بهذه الدعوة، فالبدو في رأي الوردي لم يتعودوا على الوساطة في حياتهم الاجتماعية، وليس لديهم حكام مستبدون. (31)

الحضري يدخل بعلاقة مع السلطة بحسب رأي الوردي، وهذا النسق من العلاقة يفتح باب الوساطة بينهما، لذلك يظن الحضري أن الله يقبل بالشفاعة، وهذا الجانب بالذات استطاع رجال الدين تثميره لمصلحة التحكم بالناس خدمةً للسلطان أو الحاكم، وهذا جعل الوردي يرى أن عقائد العامة وطقوسهم هي صدى لعاداتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، ويخلص الوردي إلى أن الوهابية التي أثارت الخوف بأشكال مختلفة ومتعددة عند سلطة العثمانيين آنذاك وعند الناس، دفعت كثيراً من القبائل إلى الانضواء تحت رايتها.

العودة إلى الأصول هنا هي عودة مشروطة بزرع الخوف والرعب لدى العامة، وهي تخدم ذهنية مجتمع بدوي لم تفكك علاقات اقتصادية متقدمة بناه التي تُبنى على العصبية، لذلك يمكن إيجاد علاقة بين بنى العصبية القبلية المتزمتة المغلقة وبنى العصبية الدينية الوهابية أو ما سبقهما باعتبارهما نموذجان لا يغادران موقع الفكرة الأصل على الرغم من أن الحياة تتطور باستمرار، وأنها تعدّل بشروط ولادة مثل هذه الأفكار أو عيشها.

لكنّ علي الوردي لم يقل لنا كيف يمكن تفكيك العصبية الدينية المقابلة للعصبية القبلية، فهو لم ينظر إلى حركة العصبيّتين في سياق تطوري يطرأ على البنية المجتمعية بأنساقها كلها، وهذا يحتاج إلى رؤية أشمل تقول إن التحولات الفكرية والاجتماعية تتأخر كثيراً عن التحولات الاقتصادية في بنى المجتمع الواحد ذاته. (32)

خاتمة :

لقد أردنا من خلال هذه الدراسة التعريف بعلي الوردي كأحد أبرز رواد التجديد الديني في الوطن العربي ، حيث دعا الوردي إلى إعادة قراءة الدين بمنطق جديد بعيدا عن المنطق الفلسفي أو منطق أرسطو ، حيث يعتبر الدين الإسلامي دين علم ، دين تجديد ، يتوافق مع مختلف المراحل والتحولات التي تمر بها المجتمعات البشرية ، ومن هنا نجد أن الوردي قد انتقد منطق رجال الدين ونظرتهم للإسلام الذي يقوم على الاجترار أكثر منه على البحث على حل عملي واقعي يتفق مع المجتمعات بظروفها الحالية ومختلف التغيرات التي مرت بها .

Mokarabat

كما أعاد الوردي صياغة مفهوم جديد للطائفية حيث يرى أن الطائفية ما هي إلا انتماء قبلي لمجموعة من الأفكار والموروثات التي تم تناقلها جيل عن جيل دون غربلة ودون تمحيص لمدى ارتباطها بالإسلام الفعلي ، وزاد من حدة الطائفية والانقسام المذهبي والديني الصراعات السياسية .

كما يشير الوردي إلى أن فكرة الصراع والتغير في المجتمعات البشرية لا يعود إلى شخصية معينة وإنما هي ظاهرة اجتماعية تمر بها جميع المجتمعات دون تمييز ، فما يعرف بالفتن ما هي إلا تغيير طبيعي يحدث في أي مجتمع لتحفيز الحراك الاجتماعي والانتقال بالمجتمعات من مرحلة لمرحة أخرى

المراجع :

1) علي الوردي: دراسة في سوسيولوجيا الإسلام ، ط1، الوراق للنشر والتوزيع، بغداد ، العراق، الفرات للنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، 2013 ، ص،ص. 10، 11 .

2) إبراهيم الحيدري: علي الوردي شخصيته ، منهجه وأفكاره الاجتماعية ، منشورات الجمل ، ط1، بغداد ، العراق ، 2006 ، ص،ص. 38، 39.

3) حميد المطبعي:علي الوردي يدافع عن نفسه ، بط ، بغداد ، العراق، 1987 ، ص 40

4) (/ar.wikipedia.org/، يوم : 2018/10/19، سا: 12:00.)

5) علي الوردي: دراسة في سوسيولوجيا الإسلام، مرجع سابق ، ص 40

6) إبراهيم الحيدري: مرجع سابق ، ص-ص. 65- 67 .

7) (منى شكري : علي الوردي، التمرد على اليقينيات الثقافية والدينية، 2018-04-01 ، https://www.hafryat.com ، يوم : 2019/04/02 ، سا: 14:00).

8) علي الوردي: مهزلة العقل البشري، مطبعة الرابطة ، بغداد، ط1 ، العراق، 1954 ، ص231

9) المرجع نفسه ، ص250

10)المرجع نفسه ، ص94

11)علي الوردي: وعاظ السلاطين، دار كوفان ، ط2 ، لندن ، بريطانيا، 1995 ، ص 104

12) علي الوردي:لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج5 ملحق2،بيروت ،دار الراشد ،ط2 ، لبنان ، 2005. ص 399

13)(علي المرهج : الموقف من الدين في فكر علي الوردي، نشر بتاريخ : 2017/12/23 ، www.alnaked-aliraqi.net ، يوم : 2019/04/07)

14)علي الوردي: خوارق اللاشعور، دار الوراق، لندن، ط2 ، بريطانيا، 1996 ، ص339

15)علي الوردي: وعاظ السلاطين ، مرجع سابق ، ص247

16)المرجع نفسه ، ص ، ص . 246، 247

17)المرجع نفسه ، ص 249

18)المرجع نفسه ، ص248

19)المرجع نفسه ، ص251

20)علي الوردي :لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مرجع سابق ، ص15

21)علي الوردي : وعاظ السلاطين ، مرجع سابق ، ص 10

Mokarabat

22)(علي المرهج : الموقف من الدين في فكر علي الوردي، نشر بتاريخ : 2017/12/23 ، www.alnaked-aliraqi.net ، يوم : 2019/04/07)

23)علي الوردي : وعاظ السلاطين ، مرجع سابق ، ص268

24)علي الوردي: مهزلة العقل البشري ، مرجع سابق ، ص281

25)حسين سرمك حسن: علي الوردي : المنطق الأرسطي اعتمده رجال الدين فأسهم في ازدواجية المواطن العراقي، 22/01/2014 http://new.alnoor.se ، يوم: 2019/04/02 ، سا: 14:28 .

26)المرجع نفسه .

27)المرجع نفسه .

28)المرجع نفسه .

29)المرجع نفسه .

30)المرجع نفسه .

31)(أسامة آغي: علي الوردي؛ البحث في جذور التخلف، 2019/01/09 ،https://mena-monitor.org/ يوم : 2019/04/02، سا : 14:20)

32)المرجع نفسه .

Mokarabat